١ — من أدباء الحجاز

عبد العزيز الزمزمي

٩٠٠ — ٩٧٦ هـ

للأستاذ عبد الله عبد الجبار

إن كنت ؛ أيها القارئ الكريم — من أهل مكة المكرمة ، أو لم تكن من أهلها وقد أتيح لك أن تستمتع بتلك اللحظة الروحية ؛ لحظة الغروب بالمسجد الحرام وقد أخذت مكانك خلف بئر زمزم انتظارا لأداء فريضة المغرب ، فلا ريب أنك قد شهدت فى (منظرة) مقام الشافعى رجلا مرتديا جبة بيضاء أو سوداء أو بين هذين من الألوان قد لاث عمامته على رأسه فى رفق ، وأخرج من جيبه ساعته العتيقة مدلاة من شريط أسود ثم نظر فيها ثم رفع رأسه إلى أعلى قليلا ، بعد أن وضع يده اليمنى على خده وصدغه ، وإبهامه على صماخ أذنه ، ثم ارتفع صوته بالأذان صوب السماء بتلك النغمة التقليدية: الله أكبر الله أكبر — وهو يميل لفظ الجلالة إمالة طويلة ويخطف لفظ أكبر خطفة سريعة : يكررها هكذا أربع مرات، ولا يكاد صوته ينطلق حتى تتجاوب المآذن بنداء السماء ، وحتى تنطلق أفواه المصلين وقلوبهم وأرواحهم بترجيع النداء

هذا الرجل — أيها القارئ الكريم — هو أحد أفراد أسرة (الريس) التى اختصت بأن يكون لها شرف (رئاسة المؤذنين) فى المسجد الحرام . ومن هنا كانت تسميتها (بالريس) بعد أن كانت تسمى فى التاريخ بأسرة (الزمزمى) نسبة إلى بئر زمزم

وعن شخصية من شخصيات هذه الأسرة سيكون بحثنا هذا ، فتعال معى إذن نعبر جسر الزمن لنطل على تاريخ هذه الأسرة بمكة فى القرن الثامن الهجرى :

هذه الأسرة تنتمى إلى على بن محمد بن داود البيضاوى الشيرازى الأصل : وقد قدم على بن محمد هذا إلى مكة فى سنة ثلاثين وسبعمائة هجرية عام قدمها الفيل من العراق فباشر عن الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن فى خدمة بئر زمزم . ولما آنس فيه الرشد والخير والكفاية آثره بخدمة هذه البئر متنازلا له عنها ، وزوجه بابنته فولد له منها ولده أحمد وغيره من إخوته ، وأصبح فى عقبه أمر البئر ومعها سقاية العباس رضى الله عنه . بعد ذلك تعال معى نتحدر مع الزمن لنشرف على القرن التاسع الهجرى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة حيث نشهد ميلاد عبد العزيز الزمزمى وهو موضوع هذا البحث ؛ ففى سنة تسعمائة هجرية كان ميلاد هذا العالم الأديب بمكة ، وكانت بواكير طفولته فى بواكير القرن العاشر الهجرى ، وغير حياته الطويلة الحافلة بالتدريس والإفتاء والصلاح والتقوى والرحلات المختلفة إلى مصر والشام والمدينة واليمن وبلاد الروم حتى وافاه الأجل المحتوم وهو فى السادسة والسبعين من عمره ، وتوفى بأم القرى . ويمضى نسبه على النحو الآتى :

عبد العزيز عز الدين بن على بن عبد العزيز بن عبد السلام ابن موسى بن أبى بكر بن أكبر بن أحمد بن على بن محمد بن داود البيضاوى

ثقافته وكتبه : وقد أخذ العلم عن كبار المحققين وجد واجتهد حتى ذاع صيته وبز أقرانه ، وأفاد كثيرا من العلم والتجارب من أسفاره المتعددة ، وكان شافعى المذهب ، وقد ارتحل إلى مصر فى ريعان شبابه يطلب العلم على أيدى علمائها الأجلاء — ومن مشايخه أحمد بن موسى بن عبد الغفار المالكى الذى مدحه بقصيدة مطلعها :

أريج مسك الأسحار فاح خلال الأزهار

وقد تفتقت عقلية الزمزمى حسب إمكانيات عصره وكما سمحت له ظروف حياته عن مؤلفات شعرية ونثرية منها

١ — الفتح المبين فى مدح شفيع المذنبين

٢ — فيض الوجود فى شيبتى هود

٣ — شرح على مقامات الحريرى

٤ — (نظم علم التفسير) وهو منظومة لطيفة كان الطلاب ولا يزالون يحفظونها بمدرسة الفلاح بمكة ، ولها شرح للشيخ منصور سبط الطبلاوى سماه : (منهج التيسير إلى علم التفسير)

وللسيد محسن بن السيد علي الساوي المكي شرح لها سماه (نهج التيسير على نظم أصول التفسير) طبع في سنة ١٣٥٢) وللسيد علوي مالكي العالم المكي المشهور في العصر الحاضر حاشية على الشرح المذكور سماها (فيض القدير) وللشيخ يحيى أمان العالم المدقق والأصولي البارع بمكة شرح سماه (التيسير على منظومة علم التفسير) . وما زال الزمزمي يترقى في مناصب العلم حتى أصبح عميدا لعلماء مكة في ذلك الزمان . وقد ذكر القطبي في تاريخه المرتب على السنين : « أنه في السادس عشر من المحرم سنة ٩٧٦ قد وجه إلى الشيخ عبد العزيز الزمزمي تدريس المدرسة السليمانية بخمسين عثمانيا ، وكان رئيس علماء مكة يومئذ . » وقد مدحه منوها بعلمه أبو الفيض الصديقي من قصيدة جاء فيها :

أجل جيران بيت الله قاطبة علما إذا وصفوا في مكة العلما

شعره : وللزمزمي ديوان شعر منه نسخة خطية بالكتبية التيمورية ، وقد كلفت من نسخها لي . وتقع نسخته في ست وسبعين ومائة صفحة من الحجم المتوسط . ويشتمل هذا الديوان على ثلاثة أبواب وخاتمة

الباب الأول : (النبويات) وهي القصائد التي مدح بها النبي (ص) وقد رتبها حسب الحروف الهجائية ونظم مدائحه النبوية من أغلب حروف المعجم ، وترك الحروف الآتية : الثاء . والخاء . والذال . والشين . والصاد . والضاد . والطاء . والظاء . والعين . والغين . والواو : وقد استغرقت النبويات (١٠١) صفحة من نسختي . وربما أدخل في هذا الباب قصائد ليست منه كقصيدته في مدح ابن عباس ؛ وقصيدته حين زار مدينة عدن :

وقد عارض الهمزية والبردة وجعل قافية الأخيرة مفتوحة ، ويمضي معظمها على هذا النحو :

أمن تذكر جرم جرمه عظما أرقت في الخد دمعا أم هرقت دما
أم البكاء لما أهلت جانبه من طاعة قد بكت أرضا لها وسما
فوت خطة وشد كنت مدركها قصرت تقرع سنا بعدها ندما

الباب الثاني : مدح العلماء والصالحين وممن مدحهم الإمام الشافعي والشيخ ابن عربي ومحمد بن عراق

الباب الثالث : في ذكر الكعبة المشرفة ومكة والحرم والحجاز والمشاعر المنيفة ، ويبدأ في نسختي من ص (١٦٥) ولا تجد في هذا الباب إلا قصيدة واحدة طويلة نسبيا ذكر فيها المنازل من بحا إلى زبيد إلى مكة ، وذكر فيها الكعبة المشرفة ، وقد نظمها في سيره من اليمن مع ركب الحج اليماني :

الخاتمة : وفيها نظم خمسة أحاديث نبوية وإليك مثالا منها :

وصالك جنتي ونعيم جسمي وقربك صحتي وجفاك سقمي
علام هجرتني هجرا عنيفا بلينا زائدا من غير جرم
فلا وصل ولا مكذوب وعد ولا رؤياك في طيف ملم
لقد أفرطت في ظلمي فهلا حفظت حديث ظلم دون ظلم

وقيمة هذا الديوان الصوفية أكبر من قيمته الفنية ، وهذه النزعة الروحية كثيرا ما كانت سمة من السمات التي طبعت الحياة العقلية لكثير من المفكرين والمنتجين في هذه البلاد في كثير من العصور

ويخيل إلي أن الزمزمي كان مشدودا برباط وثيق إلى عالم ما وراء الحياة . ففي رحلاته الكثيرة المتعددة لا يكاد يهبط بلدا من البلدان حتى يكون من أول ما يقوم به زيارة هذا الضريح أو ذاك لالتماس البركة من هذا الولي أو ذاك ، ونظم ذلك كله شعرا صوفيا يرتاح له ضميره

وكان لا تلم به كارثة من الكوارث أو تحدق به أزمة من الأزمات حتى يشد رحاله إلى المسجد النبوي ينشد الفرجة من مقام النبوة العظيم

وربما كانت فرقته للحجاز على كره منه ، فهو يصرح بذلك في شعره ، ويشكو إلى الله حالته الكئيبة الحزينة ، وبعده عن عياله وأوطانه وعن المشاعر المقدسة ومعاهد الطهر والإيمان ، ويستعرض أمام عينيه أيامه التي سلفت . فما أكثر ما ظل عاكفا بالمسجد الحرام يصلي حينا ويدرس حينا ويقرأ القرآن حينا ، وما أكثر ما وقف بعرفات ، فلقد حج أكثر من خمسين حجة فهل يتاح له الوقوف بها مرة أخرى ، وهل تتاح له بمنى ، المنى وهل يبصر نفسه بين أهله وذويه ، ورهطه وصحبه ، وقومه وإخوانه ؟ إنه يسجل كل ذلك في شعره إذ يقول :

إلى الله أشكو من تباريح أحزاني وبثي وبعدي عن عيالي وأوطاني
بحكم زمان ظالم جار واعتدى علي ومن قصدي عداني وعاداني
ترى هل ترى أم القرى عين نازح بجنبانه والقلب منه لها واني

أعد لى حديثا عن مشاعرها وعن ... معاهدها دامت معاهد إيمان
وعن حرم الله الأمين ومسجد ... حرام وبيت ضم أشرف أركان
فياطالما فى ظله ظلت عاكفا ... لتدريس علم أو صلاة وقرآن
ومن عرفات لست أنكر موقفا ... تعرفته من قبل إبان عرفان
وقفت به نيفا وخمسين حجة ... فكيف فى يجرى لذكر نسيان
ألا ليت شعرى بعد فرقة جمعنا ... بليلة جمع عائد عيشنا الهانى
وهل يمنى يوما تتاح لنا منى ... إليها جمار الشوق أضرم من نيرانى
وأبصر نفسى بين أهلى وأسرتى ... ورهطى وأصحابى وقومى وإخوانى

وللزمزمى قصيدة نظمها فى سيره من اليمن إلى الحجاز مع ركب الحج اليمنى ذكر فيها النازل من المخا إلى زبيد إلى مكة المكرمة . وقد بدأ نظمها (بدوقة) يوم الخميس ١٨ من ذى القعدة وأتمها بالليث يوم الأحد غرة ذى الحجة الحرام سنة ٩٥٨ هـ ، وهذه القصيدة تعتبر (خريطة شعرية) تبين لنا خط سير قاصد الحج من اليمن إلى مكة فى القرن العاشر الهجرى ، وفى مطلعها يقول :

ظمئنا فنودينا عن الشر غبتموا ... وجئنا فقال الخير جئتم وجيتمو
وما كان ذاك البعد إلا دجنة ... جلاها اقتراب صبحه متبسم
نعمنا به من بعد بؤس أصابنا ... فأذهب ذاك البؤس هذا التنعم
وأن الثوى فى أرض مكة جنة ... وكل دنو من سناها جهنم
فوالله ما فارقتها عن كراهة ... ولا لأمور جة تتوهم
ولكن مقادير بها حكم القضا ... وليس على حكم القضاء تحكم
رحلنا مطايانا إليها نؤمها ... فيا حبذا منها إليها التيمم

وبعد أن يذكر كيف مضت بهم المطايا من المخا إلى الزهارى وكيف أقاموا بزبيد ليالى ، وكيف راحت العيس وحاديها شوق ملح لقرية المنصور والنائمية يقول :

ومرت إلى (مور) ومنها تشاءمت ... إلى (قطبة) والأفق بالليل مظلم
ومذ قصدت (جازان) جاز اقتصارها ... فأضحت وحاديها عليها مخيم

وبعد أن يذكر عالية وأبا عريش التى كان مقامهم بها ثلاثة أيام يقول :

ومنها إلى صبيا بنا العزم قد صبا ... وكان لنا فى (بيش) شأن ملمم

وبعد أن يذكر وادى بيش وعتود يشجل كيف بدت لهم فى الشقيق وجوه توسموا فيها عصيان السلاطين :

ولما دخلنا فى (الشقيق) بدت لنا ... وجوه بعصيان السلاطين توسم
ومنها انصرفنا للغدير الذى على ... (عريب) بوادبه الزبالم أقدموا
ومنه مسير الركب نحو مغيزل ... تعادى به والميس للورد حوم
فرت إلى (ذهبان) ذاهبة وقد ... حلا عندها الماء الذى منه ينجم

وبعد أن يمضى قليلا يأسى للميس كيف كانت تئن من العجز وكيف دقت بكلكلها الثرى فى (دوقة) وكيف أثابت بعد أن أقامت بها يومين ، وكيف جازت مسيل الواديين ولم تقف به والليل أسود حالك ؛ وإنما مضت فى سراها سواد الليل وطرفا من النهار . حتى إذا اعتلت الشمس صاروا إلى (ذكوان) وكان لهم فيه مقيل غير محمود ؛ فقد بلغ الإعياء بهم مبلغا عظيما . وكانت الشقة بعيدة ، وكان الماء علقما والتمسوا (المجور) فلم يجدوه . . ثم ساروا حتى إذا وصلوا (الليث) لم يطيلوا المكث به ، بل راحوا (للهضب) حتى إذا صاحت حداة الركب : (هذى يلملم) ألمت بهم الأفراح واهتزت نفوسهم طربا وأناخوا ركابهم ونزلوا واغتسلوا وصلوا ولبوا وأحرموا وكان للركب ضجيج ، وكانت عيونهم تذرى الدمع فرحا ، ولم يمكثوا هناك إلا بمقدار ما أدوا به شعار النسك ، واستهلوا بلبيك اللهم لبيك ، ومن ثم يمموا نحو البيت الحرام وهم يجهشون بالبكاء :

وفى (دوقة) دقت بكلكلها الثرى ... وقامت على عجز تئن وترزم
ولكنها من بعد يوم إقامة ... أثابت فسارت وهى للركب تقدم
وجازت مسيل الواديين ولم تقف ... به والدجى بين السيلين مقتم
وصارت إلى (ذكوان) حين ذكا اعتلت ... وكان لها فيه مقيل مذمم
هزال وإعياء إلى بعد شقة ... وقد عدم المجور والماء علقم
وما طولت مذ جاءت (الليث) لبثها ... (وللهضب) راحت والحداة تترجم
ألمت بنا الأفراح لما تباشرت ... وصاحت حداة الركب هذى (يلملم)
أنيخوا المطايا وانزلوا وتغسلوا ... وصلوا ولبوا خاضعين وأحرموا
فكم ضجة للركب ثم وجولة ... وكم مقلة تذرى الدموع وتسجم

القوة المادية والايمان بالمثل العليا

للدكتور محمد يوسف الهندى

لئن سجل تاريخ القرن الماضى انقضاضا من الأمم الغربية المتفوقة فى العدة على الشعوب الشرقية الكثيرة العدد؛ فقد شاهد الجيل الحاضر تنافسا بين الدول الغربية — تنافسا قد أدى إلى صراعين طاحنين. وها هو ذا شبح الحرب الثالثة يلوح فى الأفق، ويقض مضاجع الإنسانية جمعاء، لا فرق فى ذلك بين الذين « لم يريقوا ملء محجم » وبين الذين « دقوا بينهم عطر منشم »

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى اتجهت نية الأقوياء المنتصرين إلى إنشاء نظام يكفل للعالم السلام والهدوء على ما قالوا، ولكن هذا النظام لم يكن فى الواقع يكفل شيئا غير الأوضاع القائمة إذ ذاك لصالح الذين كانوا يرون من حقهم احتكار السيادة على العالم، ولذلك انهار ذلك النظام على أيدى من رأى أن ينازعهم هذا الحق بالقوة (وقد أعيدت التجربة نفسها مع إدخال بعض التحسينات بعد الحرب الأخيرة)

وقد صادف هذا الاتجاه — أعنى اتجاه الأقوياء إلى إبعاد إمكان الحرب فيما بينهم — نضج الوعى القومى فى الشعوب الآسيوية والأفريقية المستعمرة، فبدأ مفكروها وقادتها يبحثون عن الوسائل التى يمكن بها لتلك الشعوب التخلص من نير الاستعمار واسترداد السيادة لأنفسهم على بلادهم، وقد واجه جميعهم مشكلة قهر القوة الغاشمة لتحقيق الحق الأعزل، وإنها لدراسة ممتعة جدا أن يعقد الواحد مقارنة بين الأجوبة التى أتى بها زعماء الشرق الحديث فى الأقطار المختلفة على هذا السؤال، وخلاصة القول أن عددا غير قليل من الذين كانت زعامتهم ترتكز على مقدرتهم لاستثارة الجمهور فقط تجنبوا رسم خطة محدودة فى هذا الصدد؛ بل إنما استعروا بخطب بلاغية وتصريحات جدلية هى عبارة عن التمسك بالحق والمطالبة والتهديد بالإضرار ببعض مصالح المستعمر هنا وهناك. أما الذين سما فكرهم إلى درجة الفلسفة وتنظيم خطة عامة بعيدة المدى فانقسموا قسمين: بعضهم انتهج نهج الاستهانة بقوة السلاح وتعيير القوى باستعمال القوة والعنف، حينما ذهب البعض الآخر إلى مقاومة القوة بالقوة آملين بأن كثرة العدد ربما تفوق وفرة العدة. وقد جرب كثير من الشعوب الشرقية الخطة الأخيرة ولا سيما فى بداية عهد الاستعمار فرأت عواقبها وخيمة، ولذلك أقبلت على الخطة الأولى فدرستها بإعجاب وإن لم تقبلها كمبدإ للحياة القومية

ولنستعرض الآن آراء إقبال، الفيلسوف الشاعر الذى احتفل منذ قريب بالذكرى الثالثة عشرة لوفاته، فى المسائل التى قدمناها آنفاً. لا يفوت إقبالا أبدا أن يحذر من الاستخفاف بالقوة أو إهمال أية وسيلة من وسائل الحصول عليها، فهو لا يتأثر مطلقاً مما يوجهه بعض الناس إلى الإسلام من نقد بناء على روح الجهاد فيه. بل يقول:

« إن الذى يرتجف العالم من بطشه وسفكه هو أولى بأن يلقن مبدأ ترك الجهاد . . . لقد تدججت أوربا بالسلاح للدفاع عن أبهة الباطل . . . إذا كانت الحرب شرا فى الشرق فهى لا بد وأن تكون شرا فى الغرب أيضاً . . . أما محاسبة الإسلام والصفح عن أوربا فذلك ليس من الحق فى شىء »

وكذلك يسخر إقبال من خطة تعيير القوة بالقوة حينما يقص علينا قصة عطيع من الغنم وقع فيه الأسد؛ فتقدمت شاة كانت قد أوتيت دهاء لتزعم القطيع، فاقتنعت فى نفسها بأنه من المستحيل أن تتحول الأغنام أسودا إلا أنه يمكن أن ينحط الأسد إلى درجة الأغنام، وذلك بحمله على الاستحياء من نفسه وقوته، فبدأت تلك

وما مكثوا إلا بقدار ما أتوا ... به من شعار النسك ثم أحرموا

بلبيك لبيك استهلوا وأجهشوا ... ومن ثم للبيت الحرام تيمموا

ثم بدت لهم معالم مكة:

وصرح بالأمر الحداة وبشروا ... وغنوعمو هذا المقام وزمزم

وذابيت رب العرش ما دونه سوى ... ستور عليه بالجلالة ترقم

فألفت عصاها واستقر بها النوى ... وقر عيونا باللقاء المتيم

لبحت بقية

عبد الله عبد الجبار

مدير البعثة السعودية بمصر